

المحاضرة الثامنة: التدوين التاريخي في الحضارة العربية الإسلامية:

لم يعرف العرب قبل الاسلام التدوين التاريخي ولم يكن لديهم مادة تاريخية سوى (القصص) التي كانت شائعة عندهم ويعد مظهراً من مظاهر حياتهم الفكرية، والقصص رواية شفوية يرويها القاص للاخبار والاساطير والكتابات الخرافية.

كان للقصص في عصر ما قبل الإسلام "عصر الجاهلية" أغراض شتى، فهو للعبارة والموعظة وللتفاخر بالانساب، وذكر السفر واهواله والتسلية، وقليل منه كان له غرض تاريخي إلا أن هذا القليل تعرض للتشويه بمرور الزمن وغلب عليه الخيال الذي حوله الى اساطير، وللقصص ابواب عدة اشهرها قصص (الايام) التي تتقل قصص الملوك والابطال وسادات القبائل ومآثر الاءاء والاجداد وانسابهم، والبيوت التي كانت لها الامرة على قريش كجرهم، واخبار اليمن وما جرى لسد مأرب وما تبعه من تفرق الناس في البلاد واخبار الاقوام البائدة عاد وثمود وجديس.

تدل ايام العرب على ضعف الوعي التاريخي لعدم وجود التدوين وهو منطلق الوعي التاريخي واساسه، فعلى الرغم من وجود العناصر التاريخية في الايام بذكرها لبعض حوادث الماضي المهمة إلا أنها في الوقت نفسه لم تكن تشكل مادة تاريخية صرفة لما خالطها من طابع ادبي شعري بل وطغى عليها، فضلاً عن افتقارها للوازم التاريخ من توقيت الحوادث والاستمرار ووحدة الموضوع وظلت هذه القصص متداولة شفويّاً حتى تم جمعها في القرن الثاني الهجري وصارت جزءاً من الاخبار التاريخية.

اما التاريخ عند عرب جنوب الجزيرة في اليمن والمناذرة والغساسنة فقد كان أقل اضطراباً منه عند غيرهم لامتلاكهم للنقوش والكتابات التي تظهر نوعاً من الوعي بالتاريخ من النواحي السياسية والعسكرية والادارية.

ان للقرآن الكريم دور كبير في لفت انظار العرب الى حقيقة وحدة التاريخ البشري واستمرار مسيرته منذ بداية الخلق الى يوم البعث والحساب، ثم كان تدوين السيرة النبوية الباعث المباشر والاهم من بين دوافع اخرى للكتابة التاريخية عند المسلمين ونقطة الانطلاق لها، كما أن لفتوحات

وما رافقها من حاجة لتدوين الحوادث ومعرفة ماضي البلاد المفتوحة ونظمها وسكانها، وكذلك توزيع العطاء بحسب النسب والسابقة وما يتطلبه من معرفة بالمعلومات التاريخية وتوثيق لها، فضلا عن تدوين الدواوين وفرض الجزية والخراج والى جانب هذا كله التقويم الهجري الذي اصبح العمود الفقري للدراسات التاريخية.

بدأ تدوين السيرة النبوية الذي يمثل البداية للكتابة التاريخية عند المسلمين في النصف الثاني من القرن الاول الهجري، وعرفت هذه الكتابات بأسم المغازي ثم أطلق عليها محمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) اسم السيرة.

ويعد ابان بن عثمان اول من كتب المغازي من المحدثين التي لم تقتصر على غزوات الرسول (ص) وانما اخباره ايضاً، وكان تأسيس دراسة المغازي على يد عروة بن الزبير (ت ٩٤هـ) الذي ألف كتاباً في المغازي وصلنا فيه بعض النصوص التي احتوتها مؤلفات من أقتبس منه امثال محمد بن اسحاق (ت ١٥١هـ) والواقدي (ت ٢٠٧هـ) والطبري (ت ٣١٠هـ)، وكان مؤلف عروة بن الزبير اقدم المدونات التاريخية التي وصلتنا لذلك فيعد عروة رائد علم التاريخ الاسلامي، ثم اعقبه العديد من المؤلفين امثال الزهري وموسى بن عقبة (ت ١٤١هـ) وغيرهم.

من الملاحظ على كتابات عروة ومن جاء من بعده انها لم تقتصر على المغازي وانما شملت مختلف جوانب التاريخ الاسلامي حتى العصر العباسي، وكتبوا في الانساب والطبقات والتاريخ الذي سبق الاسلام منذ بدء الخليقة وحددوا الوقت عند ذكرهم للحوادث والمصادر التي اخذوا منها اخبارهم.

◇ مناهج التدوين:

اتبع المؤرخون العرب المسلمين طرقاً ومناهجاً متعددة في كتاباتهم التاريخية من اهمها:

١- المنهج الحولي: وهي طريقة لتسجيل حوادث التاريخ تقوم على اساس زمني، وهذه الطريقة تؤرخ لاحداث سنة كاملة ابتداء من العام الهجري الاول على الاغلب، ثم ينتقل الى السنة التي تليها وهكذا حتى ينهي المؤرخ عمله بالسنة التي يريد التوقف عندها. واول كتاب وصل الينا اتبع

فيه مؤلفه المنهج الحولي هو الطبري (محمد بن جرير ت ٣١٠هـ)، ولكن ذلك لا يعني هذا انه اول من اتبع هذا المنهج وانما سبقه غيره في هذا الشأن الا ان كتاباتهم لم تصل الينا ومن ابرزهم الهيثم بن عدي (ت ٢٠٧هـ).

ثم جاء ابن الاثير في كتابه (الكامل في التاريخ) الذي اتبع الطريقة الحولية ايضا على الرغم من انتقاده لها بسبب ذكر الحادثة التاريخية الواحدة بشكل منقطع في سنين متعددة فتصبح مجزأة، ولذلك فقد اتبع أسلوب جديد وهو جمع الحادثة الواحدة التي استغرقت سنين في مكان واحد من كتابه، وهي السنة التي بدأت بها الحادثة، كما انه وضع عناوين توضح مضمون الحادثة وموضوعها. وقد اتبع المنهج الحولي العديد من المؤرخين امثال ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، وابو الفدا (ت ٧٣٢هـ) والذهبي (ت ٧٤٨هـ).

وجهت للمنهج الحولي انتقادات عدة من اهمها قصور هذه الطريقة عن تقديم صورة متكاملة واضحة عن الحوادث التاريخية الطويلة التي تمت لعدة سنوات، مما اضطر المؤرخ الى تجزئتها وتوزيعها على السنين التي حدثت فيها. وتطورت الطريقة الحولية فيما بعد فاتبع المؤرخين تدوين الاحداث التاريخية كما فعل الذهبي في كتابه تاريخ الاسلام الذي يقع في واحد وعشرين مجلداً. وهناك من كتب عن قرن كامل من الزمان في موضوع التراجم والطبقات ك والحوادث الجامعة لأبن الفوطي (ت ٧٢٣هـ)، والضوء اللامع للسخاوي (ت ٩٠٢هـ)، والدرر الكامنة لابن حجر (ت ٨٥٢هـ).

٢- تاريخ الدول: وهو يقوم على اساس تدوين تاريخ دولة من الدول او اسرة حاكمة ومن ابرز مؤرخي هذا المنهج ابو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) الاخبار الطوال وابو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية.

٣- التاريخ لعهود الخلفاء والحكام: وهو تدوين تاريخ خليفة او حاكم او سلطان وابرار خصائصه وصفاته واخلاقه وحكمه وادارته كما في كتاب سيرة احمد بن طولون للبلوري (ت ٣٥٠هـ)، وتاريخ

الخلفاء للسيوطي (ت ٩١١هـ) واتعاض الحنفاء بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء للمقريزي (ت ٨٤٥هـ).

٤- الجمع بين تاريخ الدول والعهود: وهي طريقة تاريخية يقوم فيها التدوين التاريخي على اساس الجمع بين تاريخ الدول وعهود الحكام، ومن اقدم من اتبع هذه الطريقة اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) تاريخ اليعقوبي الذي تناول فيه التاريخ القديم واريخ لجميع الامم المعروفة آنذاك ونستطيع ان نعد منهجه هو تطبيق لفكرة التاريخ العام او العالمي، ثم تناول التاريخ الاسلامي بحسب العهود وراعى في ذلك التسلسل الزمني حتى وصل الى سنة (٢٥٩هـ) واتبع هذه الطريقة ايضاً المسعودي (ت ٣٤٦هـ) في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر.

٥- الطبقات: ارتبط هذا المنهج في تدوين التاريخ بعلم الحديث لاثبات صحة الحديث ووجوب التثبت من عدالة الرواة والاطلاع على سير حياتهم، ولهذا فأنا نجد أن طبقات ابن سعد هي تراجم للمحدثين ثم تطور هذا المنهج فشمّل غير المحدثين من الفقهاء والشعراء والاطباء والنحويين وغيرهم ومن اهم من اتبع هذا المنهج تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) في كتابه طبقات الشافعية وابن ابي اصيعة (ت ٦٦٨هـ) في كتابه طبقات الاطباء.

٦- الانساب: تخصص عدد من المؤرخين في كتابة الانساب وهناك عوامل ساعدت على نشوء مثل هذا النوع من التدوين مثل توزيع العطاء ومن اهم المؤلفات في هذا الجانب كتاب الانساب للسمعاني (ت ٥٦٢هـ)، وكتاب نسب قریش للزبيرى (ت ٢٧٨هـ).

◊ ابرز سمات وخصائص التدوين التاريخي في الحضارة الإسلامية:

تميز التاريخ عند العرب المسلمين معرفة وفكراً ومناهج بصفات ومميزات اهمها:

١. ارتباطه الوثيق بالاسلام وحضارته وبالمرورث الثقافي للعرب وابداعات المؤرخين المسلمين وابتكاراتهم دون ان تكون هنالك مؤثرات خارجية ذات أهمية تذكر، فلم ينقل المؤرخين العرب عن مؤرخي الامم الاخرى الا ما يخص تاريخ تلك الامم عن طريق ترجمة عدد قليل من الكتب عن الفارسية وترجمة كتاب هروشيوس (في الاندلس من اللاتينية الى العربية)، وعدد

قليل من الكتب ترجمت عن طريق السريان وفضلاً عن الروايات التي عرفت الاسرائيليات التي انتقلت الى كتب المؤرخين العرب عن طريق اليهود والنصارى الذين اسلموا كوهب بن منبه وكعب الاحبار.

٢. كثرة المؤرخين والمؤلفات التاريخية فيقدر عدد المؤرخين بخمسة الاف مؤرخ كتبوا بين ١٠- ١٢ الف كتاب في التاريخ وفروعه كالتراجم والانساب.

٣. استقلال المؤرخين العرب على الاغلب في ارائهم ولم يكونوا مؤرخين للسلطة الحاكمة وكان كثير منهم اما علماء او ادباء او اطباء او مشغولين في علوم ومعارف اخرى فضلاً عن التاريخ.

٤. احتوت كتب التاريخ الاسلامي على روايات خاطئة لا نصيب لها من الصحة واخرى ملفقة مكذوبة و اشار ابن خلون الى هذا الجانب وبين اسبابه ودوافعه وقسم المؤرخين العرب الى ثلاثة اقسام او طبقات وهي طبقة الثقات ثم طبقة المتطفلين ثم المقلدين لهؤلاء المتطفلين.

ومن الملاحظ على التدوين التاريخي عند العرب المسلمين انهم اهتموا بالجوانب المتعلقة بالحروب والسياسة والافراد على حساب الاهتمام بالجوانب الحضارية (الاجتماعية والاقتصادية والثقافية)، كما لم يحفل المؤرخون، بتحليل الحوادث التاريخية وتعليلها، ولم يمارسوا النقد الذي يعد الاساس للدراسة التاريخية الا بحدود صيغة كنفد سند الرواية التاريخية التي اعتمدها دون نقد النصوص، ولم يظهر النقد التاريخي الا على يد ابن خلدون في القرن الثامن الهجري الذي وضع القواعد النقدية التي جعلت التاريخ علماً يتمتع بنفس الشروط التي يجب ان تتوفر في العلم الحديث.